ترجمة الجزء الأول من الفصل الأول من كتاب Histoire de ma Vie (قصة حياتي) للكاتبة فاضمة آث منصور عمروش

رشيدة سعدوني

أستاذة محاضرة، معهد الترجمة، جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله

rachi130@yahoo.fr, ALGÉRIE

Abstract

This article is a translation, into Arabic, of the first part of the first chapter of *Histoire de ma Vie*, an autobiography by Fadhma Aït Mansour Amrouche, published in 1968 by François Maspéro, Paris. It is preceded by a letter written by Fadhma to her son Jean, where she asked him to publish her autobiography. Then, the author of this article stated an adapted version of the epilog of the book, where Fadhma asked her daughter Taos to work on the publication of the manuscript. Finally comes the translation of the first part "My Mother" of the first chapter « The path to School ».

Key Words: Fadhma Aït Mansour Amrouche, Kabyle, Story of my life, Jean Amrouche, Autobiography

ملخص

يعرض هذا المقال ترجمة الجزء الأول من الفصل الأول من السيرة الذاتية للكاتبة فاضمة آث منصور عمروش المعنون Histoire de Ma Vie (قصة حياتي) الذي صدر سنة 1968م عن دار النشر الفرنسية فرانسوا ماسبيرو (François Maspero)، من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. وتبدأ الترجمة برسالة من فاضمة إلى ولدها جون (Jean) توصيه فيها بنشر سيرتها الذاتية. ثم تلي خاتمة الكتاب، والتي نقلناها بتصرف، بحيث، أوصت فاضمة ابنتها طاوس بالمهمة التي كانت قد أوكلت إلى جون (Jean) بعد وفاة هذا الأخير. وقد عرضنا تقديم ترجمة هذا الجزء، ومنهجيتها، ثم عرضنا ترجمة الجزء الأول من الفصل الأول "طريق المدرسة"، بعنوان "والدتي".

الكلمات المفاتيح: فاضمة آث منصور عمروش، القبائل، قصة حياتي، جون عمروش، سيرة ذاتية.

تقديم التّرجمة

تأتي ترجمة هذا الفصل إيمانا منّا أنّ حياة فاضمة آث عمروش لم تكن حياة عادية، توالت فيها الأيام نفسها، بل كانت حياة نضال وكفاح من أجل فرض وجودها في مجتمع لا يرحم من يرتكب الأخطاء، ومن يحيد عن قاعدة الأجداد. هي حياة وُجدت لتتناقلها الأجيال لأخذ العبرة في المصائب، والوقوف مجدّدا بعد النّكسات التي قد يشهدها المرء. كما أنّ "قصّة حياتي" ليست قصة فاضمة وحدها فقط، بل هي قصة أمها، وزوجها (أي زوج فاضمة)، وأولادها. وهي كذلك قصة ثلاثة أجيال كُتب لها الوجود في مجتمع قبائلي معروف بتمسّكه بالشّرف الذي يعتبر القانون الأسمى. ويُعاقَب كلّ من يخالف هذا القانون دون تمييز. وهنا يكمن جوهر "قصة حياتي". وإنّ هذه التّرجمة، إذن، تكتسي أهمّية لأنّها تحوي جزءا من أجزاء تاريخ الجزائر، الذي يجهله السّواد الأعظم من القراء. ونقصد بمفهوم التّاريخ هنا التّاريخ الأدبي لأنّ فاضمة آث منصور عمروش كانت والدة الكاتبة والمغنية طاوس عمروش، والكاتب والشّاعر جون عمروش (Jean Amrouche). ضفْ إلى أنّ مكوّنات الهوية معقّدة لدى هذا العائلة، بحيث كانت حياة أفرادها تتأرجح بين الثّقافة الجزائرية والثّقافة الفرنسية بكلّ أبعادهما العميقة. وإذ أخذنا على عاتقنا إنجاز هذه التّرجمة لا لسبب إلّا لأنّنا أردنا تعريف القارئ باللّغة العربية بعائلة عمروش التي عانت الأمرّين من أجل فرض وجودها في المجتمع الجزائري الذي غالبا ما كان يرى في أفرادها فرنسيي الانتماء، وفي المجتمع الفرنسي الذي رغم حصولهم على الجنسية الفرنسية، لم يعترف بهم مواطنين فرنسيين كباقي الفرنسيين.

1. منهجية الترجمة

قمنا بترجمة الجزء المشار إليه أعلاه باتّباع المراحل الآتية:

أوّلا، قرأنا كتاب Histoire de ma Vie كاملا لنفهم السّياق التّام الذي ورد فيه الجزء الأول من الفصل الأول.

ثانيا، أعدنا قراءة الجزء الأول من الفصل الأول بتمعّن، موازاة مع البحث عن معاني الكلمات الصّعبة باللغة الفرنسية، والبحث في مراجع مختصة عن معنى الكلمات الثّقافية التي استعملتها كاتبة النّص الأصلي.

ثالثا، اعتمدنا، وبشكل خاص، على معرفتنا اللسانية الثّقافية الواسعة للمجتمع القبائلي الذي ننتمي إليه لفهم معنى النّص الأصلي، والقراءة بين السّطور.

رابعا، أنجزنا ترجمة أوّلية تشبه إلى حدّ كبير التّرجمة الحرفية لأنّ كاتبة النّص الأصلي استعملت جملا قصيرة، وفقرات تعبّر، في أغلبها، عن فكرتين على الأكثر. فكان لزاما علينا مراجعة هذه التّرجمة، وإعادة صياغة بعض أفكارها لتتناسب وأسلوبية اللغة العربية.

خامسا، حاولنا، قدر الإمكان، تجنّب استعمال تقنية النّسخ من اللغة الفرنسية من حيث الأسلوب، والتّحرير بلغة عربية سليمة. كما حافظنا على ترتيب الأفكار كما وردت في النّص الأصلي، حتى وإن كانت بعضها مكرّرة. ويكمن الهدف من هذا الأمر تحقيق الأمانة في ترجمة النّص إلى اللغة العربية لأنّنا أردنا إيصال رسالة فاضمة عمروش بكلّ أبعادها ومعانيها العميقة.

سادسا، قمنا باقتراض كلّ أسماء العلم باستعمال طريقة النقل الصوتي، أي أنّنا نقلنا هذه الأسماء بنفس الصوت في اللغة الفرنسية، ولكن بحروف اللغة العربية، وهو ما يُعرف بتقنية transcription.

2. مضمون النّص الأصلي

يتناول النّص الأصلي السيرة الذاتية للكاتبة والشّاعرة الجزائرية فاضمة آث منصور عمروش، التي نُشرت سنة 1968، بعد مرور سنة من وفاة صاحبتها. وتبدأ هذه السيرة بتقديم من فانسنت مونتاي والكاتب الجزائري كاتب ياسين. ثم رسالة من جون عمروش (Jean Amrouche) إلى والدته فاضمة عمروش. وتتبعها رسالة من فاضمة إلى ولدها، يمكن اعتبارها ردّا منها على ما طلبه منها في الرّسالة الأولى. ويتعلّق الأمر بنشر سيرتها الذّاتية. وتروي فاضمة في هذه السيرة ظروف ولادتها غير الشّرعية في أواخر القرن التاسع عشر، بحيث عانت والدتها عيني من احتقار المجتمع لها، بل أكثر من هذا الأمر، فقد تم تهميشها من عائلتها. كما تناولت فاضمة طفولتها التي قضتها عند الأخوات البيض، ومراهقتها في مستشفى آيت منقلات الذي قضت فيه عامين، والتقت هناك ببلقاسم عمروش الذي تزوجته بعد أن اعتنقت المسيحية. ثم سردت فاضمة الحياة الزوجية التي عاشت قسطا منها في قرية إغيل علي، وهي مسقط رأس زوجها، وكيف أدت الظّروف إلى انتقال العائلة إلى العاصمة تونس بحثا عن حياة أفضل.

وتتجزّأ هذه السيرة المنشورة إلى أربعة أجزاء وهي:

أولا: طريق المدرسة. وتتفرّع عن هذا الجزء الأول خمسة أقسام فرعية وهي: 1. والدتي، 2. تادارث أوفلا، 3. المدرسة العليا، 4. قريتي كما عهدتها، 5. مستشفى آيت منقلات.

ثانيا: ولوج عائلة عمروش. وتتفرع عن هذا الجزء ثلاثة أجزاء فرعية وهي: 1. زواجي، 2. إغيل علي، 3. وفاة الجد حسان أو عمروش وتقهقر العائلة.

ثالثا: منفى تونس. وتتفرع عن هذا الجزء أربعة أجزاء فرعية وهي: 1. المتنقلون، 2. من بيت إلى بيت آخر، 3. شارع النهر، 4. مرفأ رادس.

ثم وضعت فاضمة خاتمة لسيرتها، وأضافت إهداء إلى ابنتها طاوس في شهر جوان سنة 1962م، توصيها فيها بطبع سيرتها، إضافة إلى الإهداء الأول إلى ابنها جون (Jean) –بعد وفاة هذا الأخير– وألحقت ستة قصائد في نهاية سيرتها. وهي قصائد رثاء قالتها في وفاة أولادها الأربعة، وقصيدة واحدة تكريما لابنتها طاوس عندما كانت تزاول دراستها بإسبانيا.

وقد اخترنا ترجمة هذا الجزء دون غيره لأنّه بمثابة وثيقة تعريف لفاضمة عمروش، ففيه تحدّثت عن مصدر مشكلة الهوية عندها بسبب نظرة المجتمع القبائلي إليها على أنها لقيطة، ولا تستحقّ الاحترام الذي يحظى به غيرها. كما نرى هذا الجزء الأول من سيرتها واجهة نلج من خلالها إلى ما يتبعه من أحداث. فالطفولة عند أيّ شخص، وخاصة الكاتب، هي مرحلة حاسمة إذ تتخلّلها أحداث من شأنها تغيير مسار حياته. وهذا ما حدث لفاضمة بالضّبط. فمجرّد كونها ابنة غير شرعية شجّع المجتمع على تهميشها واحتقارها، ما أدى بوالدتها إلى تركها عند الأخوات البيض، ثم في مدرسة السيدة مالافال. وهذان الأمران ساهما مساهمة مباشرة في ترسيخ الثقافة الفرنسية عندها، وزاده درجة انتقالها إلى مستشفى آيت منقلات الذي كان يشرف عليه الآباء البيض. وما نريد قوله هو أن البيئة التي نشأت فيها فاضمة عمروش، وكذلك ظروف الحياة آنذاك في مجتمع لا يغفر أخطاء المرأة، هي ما شجّعها على المضي قدما إلى الآخر علّها تجد السّلام الذي ما انفكت تطلبه. ولو لم تكن لديها والدة عظيمة بذلت كلّ غال ونفيس من أجل ضمان حياة أفضل لها، لما قدّر لفاضمة أن تفجّر طاقتها الإبداعية لتكتب سيرتها، وقصائد، وتتلي حكايات البربر الغابرة، والتي نشرتها ابنتها طاوس في كتاب Le Grain Magique (الحبة السوداء) سنة 1966م.

وعليه اخترنا ترجمة هذا الجزء لإبراز دور الوالدة عيني في صقل شخصية ابنتها فاضمة، وكذلك دور السيدة مالافال، واللتان أرادت فاضمة تكريمهما، كما أشارت إليه في الرّسالة التي وجّهتها إلى ولدها جون (Jean) سنة 1946م حيث كتبت: "وأهدي هذه القصة إحياء لذكرى كلّ من والدتي الغالية، والسّيدة مالافال (Malaval) التي منحتي الحياة الروحية."

وإنّ هذه التجربة التي خضناها لترجمة سيرة فاضمة عمروش هي –حسب معرفتنا– الترجمة الأولى باللغة العربية، إذ تنعدم ترجمة منشورة باللغة العربية لهذه السّيرة. وقد قمنا بترجمة الكتاب كلّه، ولكن دار النشر الأصلية رفضت منحنا حقوق الترجمة، ولهذا السّبب بقيت محاولتنا حبيسة الأدراج. ويبقى عزاؤنا هو نشر ترجمة الجزء الأول من الفصل الأول لهذه السيرة ليطّلع القارئ باللّغة العربية على قسط من حياة فاضمة آث منصور عمروش.

3. النّص الأصلي باللغة الفرنسية

Maxula-Radès, 1er août 1946.

A Mon fils Jean,

Je te lègue cette histoire, qui est celle de ma vie, pour en faire ce que tu voudras après ma mort.

Cette histoire est vraie, pas un épisode n'en a été inventé. Tout ce qui était arrivé avant ma naissance m'a été raconté par ma mère, quand j'ai été d'âge à le comprendre. Si j'ai écrit cette histoire, c'est que j'estime qu'elle mérite d'être connue de vous.

Je voudrais que tous les noms propres (si jamais tu songes à en faire quelque chose) soient supprimés et si tu en fais un roman, que les bénéfices soient partagés entre tes frères et ta sœur, en tenant compte de tes frais et de ton travail.

L'histoire, une fois écrite, sera cachetée et remise entre les mains de ton père qui te la remettra après ma mort [(1)].

J'ai écrit cette histoire en souvenir de ma mère tendrement aimée et de Mme Malaval qui, elle, m'a donné ma vie spirituelle.

1er août – 31 août 1946.

M. Amrouche

Epilogue

1- En 1939, parmi les sept enfants Amrouche, trois étant morts, il restait Henri, Jean, Marie-Louise Taos et René. Aujourd'hui, seuls demeurent René et Marie-Louise Taos qui reprend la tâche confiée à Jean. Il a été décidé avant la mort de Jean que le document serait respecté dans son intégralité. Monsieur Amrouche père ne désirait aucunement la divulgation de ce document. De son vivant, jamais ce texte n'aurait pu être publié.

Paris, le 16 juin 1962.

Ceci est l'épilogue de l'histoire de ma vie que j'écrivis à Maxula-Radès, au mois d'août 1946, en souvenir du cinquantième anniversaire de ma sortie de l'école de Taddert-ou-Fella, en Kabylie. Je dédiai ce récit à mon fils Jean, auquel je le confiai. J'avais essayé de l'ouvrir à Ighil-Ali, en 1953, mais je compris que cela déplaisait au Papa, et, comme je ne voulais pas le chagriner, je remis le cahier dans son tiroir dont, seul, il avait la clef pendue à la chaîne de sa montre.

Cette suite, je la dédie à ma fille *Taos*, Marie-Louise Amrouche, en souvenir des ancêtres, de la vieille maison abandonnée, en souvenir du pays kabyle que nous ne reverrons sans doute pas.

En souvenir de son père et de ses frères morts, je lui lègue tout ce dont j'ai pu me souvenir, ces lignes si maladroites, car ma vue baisse de plus en plus, et mes mains tremblent, et il me faut faire des efforts pour écrire de façon lisible. J'ai eu tant de malheurs.

(…) Aussi, j'adjure ma chère fille d'avoir de la patience et de savoir, selon la sagesse kabyle, remettre les choses entre les mains de Dieu.

Son père répétait : *L'homme se démène, mais Dieu le mène*.

Pour elle, j'ai voulu tracer, -d'une façon bien maladroite-, cette formule de vie :

« Patience et courage ! Tout passe, tout s'évanouit, et tout roule dans le fleuve de l'éternité. »

Chapitre I : Le Chemin de l'École

Première partie : Ma Mère

Ma mère était originaire de Taourirth-Moussa-ou-Amar, à quelques kilomètres de Tizi-Hibel, mon village. Elle était issue d'une très bonne famille, les Aïth Lârbi-ou-Saïd. Très jeune, elle fut mariée à un homme bien plus âgé, presque un vieillard ; il avait une fille plus âgée que ma mère.

Ma mère ne s'est jamais plainte de cet homme qui l'aimait à sa façon. Elle lui donna deux fils, mes frères Mohand et Lâmara. Cet homme avait un frère beaucoup plus jeune qui n'avait pas d'enfants. Celui-ci voulut établir un acte par lequel il léguait ses biens à sa femme. Avant qu'il ne l'eût fait, son aîné lui tendit une embuscade et le lendemain on trouva le cadet mort, adossé à une meule de paille, dans un endroit écarté, en dehors du village, appelé « Sebala », où tous les villageois dressent leurs meules. On ne découvrit pas son meurtrier et l'on classa l'affaire.

Ma mère me raconta que dès ce jour son mari fut maudit. Il fut atteint d'une maladie terrible : tout son corps fut couvert de cloques qui se remplissaient d'eau, et cette eau jaune coulait le long de ses jambes :

« L'année de sa mort, disait ma mère, il y eut une récolte miraculeuse. De mémoire d'homme on n'avait vu les figuiers si chargés de fruits, les trailles de grappes, ni les épis si beaux.

« Quand nous allions aux champs, il disait, en soulevant les branches : - Regarde, femme, regarde tous les biens que Dieu nous donne ! »

Et moi de répondre doucement : - « Ma ne der ! » (Si nous vivons !).

Un jour que je lui répondis encore ainsi, pris d'une rage soudaine, il me secoua en criant :

- « Nous vivrons, femme ! Nous vivrons ! »

Il ne devait voir mûrir ni les figues, ni les raisins. La moisson était à peine rentrée qu'il mourut. »

Son mari n'était pas encore mis en terre que mon oncle maternel, Kaci Aïth-Larbi-ou-Saïd, venait trouver ma mère et lui ordonner : - Quitte cette maison. Viens chez nous avec tes enfants. Notre mère les élèvera, et toi, tu te remarieras. »

- « Je resterai avec mes enfants, dans ma maison », lui répondit-elle, bravant ainsi son frère et la coutume[1]. Mon oncle, qui était très grand, arracha une tuile du toit et la lui lança, heureusement sans l'atteindre. Il alla droit à la *tajmaât*, et prenant l'assistance à

témoin, il déclara : - « A dater de ce jour, je renie ma sœur Aïni. Elle est exclue de notre famille : quoi qu'elle fasse, quoi qu'il advienne d'elle, nous nous désintéressons de son sort. Elle nous est étrangère. »

Il retourna dans son village, et jamais plus, depuis ce jour, ma mère ne revit la maison de son père.

Elle s'occupa de faire ensevelir son mari selon les usages. Avec l'argent emprunté sur sa récolte de raisin, elle acheta une paire de bœufs qu'elle fit sacrifier pour le repos de l'âme du défunt. La viande fut partagée à tout le village. Chaque famille en eut sa part, un morceau par personne. En outre, un banquet funèbre fut servi à la tajmâat, destiné plus spécialement aux pauvres qui se rassasièrent ainsi de couscous.

Ma mère restait seule à vingt-deux ou vingt-trois ans, avec deux enfants dont l'aîné avait cinq ou six ans, et le cadet trois. Elle était très belle : le teint clair et rose, avec des yeux bleu-vert ; un peu trapue, solide, avec les épaules larges, le menton volontaire et un front bas et têtu. Elle se mit courageusement à l'ouvrage. Elle faisait son ménage, allait chercher l'eau, moulait son grain pour la journée, préparait ses repas la nuit. Le jour elle travaillait aux champs.

Quand elle avait besoin de l'aide d'un homme, elle devait le payer bien cher. L'hiver, au temps des olives, elle rendait cinq journées de ramasseuse pour une seule de gauleur.

Mais elle était jeune, imprudente. Dans sa propre cour habitait un jeune homme de la même famille que son vieux mari. Il l'aimait. Elle l'aimait. Et ce qui devait arriver arriva.

Elle fut enceinte, et l'homme nia être le père de l'enfant. Les mœurs kabyles sont terribles. Quand une femme a fauté, il faut qu'elle disparaisse, qu'on ne la voie plus, que la honte n'entache pas sa famille. Avant la domination française, la justice était expéditive ; les parents menaient la fautive dans un champ où ils l'abattaient. Et ils l'enterraient dans un talus.

Mais en ce temps-là, la justice française luttait contre ces mœurs trop rudes. Et ma mère eut recours à elle[1].

Dès qu'elle ne put cacher sa faute, les oncles de mes frères se réunirent – c'étaient les frères du vieux mari. Ils décidèrent de chasser ma mère et de recueillir ses enfants dont ils convoitaient les biens. Quand ils voulurent la contraindre à partir, elle porta plainte en justice.

Les magistrats montèrent au village. La cour désigna un tuteur et un subrogé tuteur pour les enfants, dressa l'inventaire des biens et repartit en décrétant que personne ne devait toucher à la veuve ni aux orphelins.

La nuit de ma naissance[2], ma mère était couchée seule, avec ses deux petits ; personne auprès d'elle pour l'assister ou lui porter secours : elle se délivra seule, et coupa le cordon ombilical avec ses dents. Une seule vieille vint le lendemain avec un peu de nourriture.

Le neuvième jour après ma naissance, ma mère me mit dans son giron, contre sa poitrine, car il avait neigé, prit ses enfants, chacun d'une main, et elle alla déposer une plainte contre mon père entre les mains du Procureur de la République. Elle voulait me reconnaisse et me donne son nom. Lui refusait, car il était fiancé à une fille du village, d'une puissante famille qui le menaçait de le tuer s'il abandonnait cette fille et il avait peur !

Le procès dura trois ans. Pendant tout ce temps, ma mère, par le froid comme par la chaleur, revint plaider et harceler les juges. Tous les témoins disaient que c'était mon père, car j'étais son vivant portrait. Au bout de trois ans, il fut condamné aux dommages-intérêts – trois cents francs !- que ma mère refusa, mais la loi interdisait en ce temps-là

1- Depuis 1874, en Kabylie, le seul juge pour les Musulmans est le juge de paix français, qui, tenant compte et de la coutume et du droit musulman, cherche cependant, en matière de contestations relatives au statut personnel, comme c'est le cas ici, des solutions d'équité et d'humanité allant parfois à l'encontre de la coutume : par exemple, la libre disposition d'elle-même est reconnue à la femme non-vierge ; la garde des enfants est laissée à la mère ; en outre, la tutelle est aménagée pour éviter la spoliation des orphelins.
(Voir Jean-Paul CHARNAY, La vie musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de la 1re moitié du XXe siècle. Paris, P.U.F., 1965).

2- Naissance présumée de Mme Amrouche : 1882.

la recherche de la paternité, on ne put le contraindre à me reconnaître ; et j'eus sur le front le cachet de la honte.

De désespoir, ma mère me plongea dans une fontaine glacée. Mais je n'en mourus pas.

Ma mère poursuivit sa tâche habituelle sans aide aucune, sans aide aucune, de nuit comme de jour : lavant, cardant, peignant, filant et tissant la laine, labourant ses champs, cueillant ses figues, ses raisins, ses olives, faisant son ménage et la cuisine, criblant et moulant le blé, orge ou glands, charriant l'eau et portant son bois.

Quand j'étais toute petite, elle me laissait endormie jusqu'à son retour ; quand j'étais un peu plus grande, elle déposait à côté de moi une petite cruche d'eau et une écuelle contenant un petit tas de couscous.

En me réveillant, je trouvais ce petit tas, je prenais les grains que je mangeais, puis, le couscous fini, je buvais à la petite cruche (*tabouqalt*), qui avait un petit goulot.

Je suçais l'eau et me rendormais jusqu'au retour de ma mère. Parfois, lorsqu'elle devait rentrer tard, une voisine charitable consentait à me garder un peu, mais c'était rare.

Le monde est méchant, et c'est « l'enfant de la faute » qui devient le martyr de la société, surtout en Kabylie. Que de coups, que de bousculades, que de souffrances n'ai-je pas subis ! Il arrivait, lorsque je sortais dans la rue, que je sois renversée et piétinée.

La première image que j'ai devant les yeux est celle d'une journée d'été, d'un soleil de plomb sur une route poudreuse et très en pente ; je vois un garçonnet d'une dizaine d'années, chassant devant lui des bêtes, puis une enfant, presque un bébé, criant : « d'hada !d'hada » - Mon grand frère ! Mon grand frère ! Puis ce fut le silence.

Aussitôt vient une autre image : celle d'une maison dont la porte ouverte fait rentrer une nappe de soleil ; dans ce soleil, une femme est penchée sur un corps d'enfant nu, couvert de dards de cactus ; des larmes chaudes tombent sur le corps meurtri, pendant que la femme tire une à une les épines du corps de l'enfant.

J'ai su plus tard que l'enfant c'était moi : j'avais suivi mon frère qui menait les bœufs à l'abreuvoir, et un méchant garçon m'avait poussée dans la haie de figuiers de barbarie. Ma mère prit peur. Que devait-elle faire de moi ? Comment me préserver de la méchanceté des hommes ? Elle ne pouvait pas toujours m'enfermer, or, si je sortais de la maison, elle craignait que quelqu'un ne me tue et que la faute ne retombe sur elle, aux yeux de la justice.

Elle apprit qu'il y avait aux Ouadhias des Sœurs Blanches qui accueillaient les petites filles et en prenaient soin. Elle pensa être tranquille sur mon compte en me confiant à ces religieuses ; personne ne me ferait plus de mal. Toutefois, elle résista longtemps car elle m'aimait, j'étais son enfant. Elle avait refusé de me donner à la femme du juge de paix, qui n'avait pas d'enfant et avait voulu m'adopter après l'incident de la haie de cactus et, me voyant encore en butte à de mauvais traitements, elle décida de s'en remettre aux Sœurs Blanches.

Un mercredi, jour de marché, ma mère me chargea sur son dos et m'emmena aux Ouadhias. Je me souviens très peu de cette époque. Des images, seulement des images. D'abord, celle d'une grande femme habillée de blanc, avec des perles noires; à côté du chapelet, un autre objet en cordes nouées, sans doute un fouet ; cette Sœur, je le sus plus tard, était chargée des petites filles. Il y avait avec moi d'autres enfants, mais plus âgées, entre autres : Tassâdit Aïth Ouchen – Félicité, de qui il sera question plus loin.

D'après ma mère, j'ai dû rester un an dans cette maison, sans doute de l'été 1885 à 1886. Tous les mercredis, ma mère venait me voir ; elle m'apportait ce qu'elle avait de meilleur, des œufs durs, de la galette et des crêpes, des figues blanches et sucrées. Pour que les autres enfants ne me fassent pas de mal, ma mère partageait entre nous tout ce qu'elle avait apporté. Une fois, elle resta longtemps sans venir. Les semaines passèrent. Enfin je la revis ; elle était pâle et amaigrie. Elle m'expliqua que mon frère Lâmara s'était battu avec un garçon de son âge ; elle avait voulu les séparer et le père de l'enfant lui avait lancé une pierre qui l'avait atteinte au sommet du front. On dut la transporter chez

elle, évanouie. Après bien des jours passés entre la vie et la mort, elle était guérie, et elle porta ma petite main à sa tête où je sentis un trou.

De toute cette époque de ma vie, je n'ai retenu que l'air de l'*Ave Maris Stella*, l'image de la chapelle illuminée, avec le prêtre qui officiait et montrait l'ostensoir. (Longtemps après mon départ des Ouadhias, je me demandai ce que cela voulait dire.) Mais je vois surtout une image affreuse : celle d'une toute petite fille debout contre le mur d'un couloir : l'enfant est couverte de fange, vêtue d'une robe en toile de sac, une petite gamelle pleine d'excréments est pendue à son cou, elle pleure. Un prêtre s'avance vers elle; la Sœur qui l'accompagne lui explique que la petite fille est une méchante, qu'elle a jeté les dés à coudre de ses compagnes dans la fosse d'aisance, qu'on l'a obligée à y entrer pour les y chercher : c'est le contenu de la fosse qui couvre son corps et remplit la gamelle.

En plus de cette punition, la petite fille fut fouettée jusqu'au sang : quand ma mère vint le mercredi suivant, elle trouva encore les traces des coups sur tout mon corps. Elle passa ses mains sur toutes les meurtrissures, puis elle fit appeler la Sœur, et lui montra les traces des coups, en lui disant : « C'est pour cela que je vous l'ai confiée? Rendez-moi ma fille! » La Sœur me déshabilla, m'enleva même la chemise. Ma mère prit le foulard qui lui couvrait la tête, en attacha deux coins sur mon épaule, fixa l'étoffe sur l'autre épaule avec une grosse épine en guise de fibule, dénoua sa large ceinture de laine, se la passa autour du front, me saisit par la main et me jeta sur son dos.

C'est ainsi que je quittai les Sœurs des Ouadhias.

4. ترجمة النص الأصلي إلى اللغة العربية

رسالة إلى جون عمروش(Jean Amrouche)

مكسولا رادس (Maxula Radès) في 1 أغسطس سنة 1946م.

إلى ابني جون (Jean)،

أنقل إليك هذه القصة، وهي قصة حياتي، لتفعل بها ما يحلو لك بعد وفاتي. وهي قصة حقيقية، وليست من نسج الخيال. وكل ما ورد فيها من أحداث قبل ولادتي روته لي والدتي عندما كنت في سن تسمح لي بفهم الأمور. فإذا كتبتها فذلك راجع لاعتقادي بأنّها تستحقّ أن تعرفوها. وأريد أن تُحذف جميع الأسماء (في حال إذا ما فكرت في القيام بأمر آخر). وإذا ألّفت رواية عنها، أريد أن يتم تقاسم الأرباح بين إخوتك وأختك، مع الأخذ بعين الاعتبار حصّتك. وسأختم القصة وأسلّمها لوالدك الذي سيمنحك إيّاها بعد وفاتي.[1]

وأهدي هذه القصة إحياء لذكرى كلّ من والدتي الغالية، والسّيدة مالافال (Malaval) التي منحتي الحياة الروحية.

من 1إلى 31 أغسطس سنة 1946م.

م.عمروش [2]

1– توفي ثلاثة أبناء من بين سبعة لعائلة عمروش، في عام 1939م، وبقي كل من هنري (Henri)، وجون (Jean)، وماري لويز طاوس (Marie-Louise Taos)، وروني (René). ولم يبق، اليوم، على قيد الحياة سوى روني (Henri)، وماري لويز طاوس (Marie-Louise Taos) اللذان تولّا المهمة الموكلة إلى جون. وتقرر قبل وفاة جون احترام الوثيقة في مجملها. ولم يرغب السيد عمروش أن تنشر الوثيقة. ولو بقي على قيد الحياة ما نُشر هذا النّص. (ملاحظة دار النشر الأصلية).

2– يعود حرف الميم الذي ذكر في عبارة (م. عمروش) إلى مارغريت (Margaret) وهو الاسم المسيحي الذي عرفت به فاضمة آث منصور عمروش. (المترجمة)

باريس(Paris) في 16 جوان سنة 1962 م.

هذا النصّ خاتمة قصّة حياتي التي كتبتها بمدينة ماكسولا رادس (Maxula Radès) خلال شهر غشت سنة 1946م احتفاء بالذّكرى الخمسين لخروجي من مدرسة ثادارث-أوفلا (Taddert-ou-fella) ببلاد القبائل. وأهدي هذه القصّة إلى ابني جون (Jean)، وأعهدها إليه. وقد سبق لي وأن حاولت فتح هذا الدّفتر في إغيل علي (Ighil-Ali) سنة 1953 م، ولكنّني سرعان ما تيّقنت أن ذلك قد يزعج أباه، فأغلقته كي لا أُحزنه. وأعدته إلى الدّرج الخاص به والذي لا يملك مفتاحه إلا هو، وكان معلّقا في سلسلة ساعته.

وأهدي هذه التّتمة إلى ابنتي طاوس ماري لويز عمروش(Taos Marie-Louise Amrouche) إحياء لذكرى الأجداد الذين سكنوا المنزل القديم المهجور، وإحياء لذكرى بلاد القبائل، الوطن الذي قد لن نراه مجدّدا. وأترك لها كلّ ما استطاعت ذاكرتي تخزينه إحياء لذكرى والدها، وإخوتها المتوفّين .وأترك لها هذه الأسطر غير المستوية بسبب نقص بصري المستمر، وارتعاش يداي. ويتعيّن عليّ بذل جهد كبير ليكون خطي واضحا .فكم عانيت من المصائب في حياتي.

(...) وأطلب من ابنتي الغالية التّحلي بالصّبر والهدوء، كما تمليه العادات في بلاد القبائل، وتترك كلّ الأمور بيد الله. فقد اعتاد والدها ترديد العبارة الآتية» :الإنسان يُهد نفسه، والرّب يُرشده". ورغبت في شقّ صيغة الحياة لابنتي، وبشكل أحمق بعض الشيء، والتي تتلخّص في المقولة الآتية: "صبرا وشجاعة، فإنّ كلّ شيء يمرّ، ويزول، ويأخذ مجرى نهر الأبدية".

الفصل الأول: طريق المدرسة

الجزء الأول: والدتي

تنحدر والدتي من قرية تاوريرت موسى–أو–عمار (Taourirt-Moussa-Ou-Amer) التي تبعد بضعة كيلومترات عن قريتي تيزي هيبل (Tizi-Hibel) وتنتمي إلى عائلة آيت لعربي-أو-سعيد (Aït-Laribi-Ou-Saïd) العريقة. وتزوّجت وهي صغيرة من رجل طاعن في السّن، وكانت لديه ابنة تكبر والدتي سنّا.

ولم تشتك والدتي يوما من ذلك الرّجل الذي أحبّها بطريقته الخاصة. فلقد أنجبت له ولدين، وهما إخوتي محند ولعمارة. وكان له أخ في ريعان الشباب لم يُرزق بذرية، فأراد توريث أملاكه لزوجته. وقبل أن يحقّق مُراده، نصب له أخوه البكر كمينا وقتله، وعُثر على جثّته في اليوم الموالي، متكئا على كومة قش في مكان مهجور خارج

القرية يسمى "سبالة"(Sebbala)، حيث ينصب كلّ القرويين أحجار الرحى الخاصة بهم. ولم يتم التّوصّل إلى قاتله، فطُويت القضية.

وروت والدتي أنّه منذ ذلك اليوم، حلّت اللعنة بزوجها الذي أصيب بمرض مريع، بحيث كانت البثور ممتلئة بالماء تغطي جسمه بالكامل. وكان ذلك الماء ذو اللّون الأصفر يسيل على طول ساقيه. "وفي السّنة التي توفي فيها –تقول والدتي– كان هناك حصاد وافر. فلم يسبق لأشجار التّين وكروم العنب أن امتلأت بالفاكهة بذلك الشّكل من قبل. وحتّى سنابل القمح لم تكن بذلك الجمال."

"عندما كنا نقصد الحقول، كان يقول لي وهو يرفع الأغصان: "انظري يا امرأة، انظري إلى الخيرات التي منحنا الله إيّاها!". فأجيبه بصوت خافت: "ما ندّر!"[1] (أي إذا أطال الله في أعمارنا للاستمتاع بهذه الخيرات).

وذات يوم عندما أجبته كالمرات السّابقة، غضب فجأة، وصاح قائلا: "سنعيش يا امرأة، سنعيش!".

ولكن لم تُكتب له رؤية التّين والعنب. فقد كان فصل الحصاد على وشك الدّخول عندما توفي." ولم تكد تنتهي مراسيم الدّفن حتى أقبل خالي قاسي آيت العربي-أو-سعيد يبحث عن والدتي ويأمرها قائلا: "اتركي هذا المنزل، وتعالي أنت وأبنائك عندنا. ستعتني والدتنا بهما، وأنت ستتزوجين للمرّة الثانية". فأجابته والدتي قائلة:

"سأبقى مع أبنائي في منزلي"، متحدّية أخاها، والعادات والتّقاليد في آن واحد .[2]

وعندئذ قام خالي ذو طويل القامة بنزع قرميدة من السقف، وقذف بها نحو والدتي. ولم تُصِبها لحسن الحظ. واتجه بعد ذلك مباشرة إلى ثاجماعث[3]، وصرّح بحضور الشّهود قائلا: "ابتداء من هذا التّاريخ، أتبرّأ من أختي عيني، وهي منبوذة من عائلتنا. ولا يعنينا ما تفعله، وما يحدث لها، ولن نكترث لمصيرها. فقد أصبحت غريبة عنّا".

وقفل راجعا إلى قريته، ومنذ ذلك اليوم، لم تعد والدتي إلى منزل والدها أبدا. ثم انشغلت بدفن زوجها حسب العادات. واشترت زوجًا من الثّيران بالمال الذي اقترضته على رهن جني العنب، وضحّت بهما على روح

1– وردت هذه الجملة باللهجة القبائلية (المترجمة).

2– تقتضي العادة أن يعود أبناء الأرملة إلى عائلة أبيهم، عند بلوغ سنّ السّابعة. وتختار الأرملة العيش عند عائلتها أو عند عائلة زوجها في انتظار زواجها مجدّدا.

3– ثاجماعث هو مكان في الهواء الطّلق، يجتمع فيه أهل القرية من الرّجال فقط، دون النّساء، لمناقشة أمور تخص مصلحة القرية. والكلمة اقتراض محرّف من اللّغة العربية (جماعة، تجمّع). (المترجمة)

المرحوم. وتم توزيع اللّحم على جميع سكان القرية، إذ تحصلت كل عائلة على حصتها التي تمثلت في قطعة لحم واحدة لكل فرد. كما أقيمت وليمة جنازة في ثاجماعث، وخصصت للفقراء الذين تناولوا كميات كبيرة من الكسكس.

وترمّلت والدتي في سن الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، وهي أمّ لطفلين أكبرهما في سن الخامسة أو السادسة، وأصغرهما كان يبلغ ثلاث سنوات. وكانت جميلة جدا، وذات بشرة فاتحة وردية، وعيون زرقاء وخضراء. كما كانت ممتلئة الجسم نوعا ما، وصلبة، وذات أكتاف عريضة، وذقن بارز، وجبين منخفض. وأقدمت على العمل بشجاعة إذ كانت تقوم بأشغال المنزل، وتغدو لجلب الماء، وتطحن الحبوب، وتعدّ الأكل في الليل. وكانت تكرّس وقتها نهارا للعمل في الحقول.

وعندما كانت والدتي بحاجة لمساعدة رجل، كان عليها أن تدفع ثمنا باهظا. وكانت تجمع الزيتون بمفردها في فصل جنيه في الشتاء، لمدة خمسة أيام متتالية. ولكنها كانت شابة طائشة، إذ كان يقطن بفنائها الخاص شاب من نفس عائلة زوجها السابق، فأحبّها وأحبّته، وحدث ما حدث. وأضحت والدتي حاملا، وأنكر الرجل أن يكون والد الطفل.

إنّ العادات القبائلية صارمة، فعندما تخطئ المرأة، لابد لها أن تتوارى عن الأنظار حتى لا تُلحق العار بعائلتها. وكان العقاب سريعا قبل الهيمنة الفرنسية، إذ كان الأهل يقودون المذنبة إلى الحقل ويقومون بذبحها، ثمّ يدفنونها في المنحدر. وفي مرحلة الوجود الفرنسي، قامت العدالة بمكافحة تلك العادات المتشدّدة، وإليها لجأت والدتي[1].

وحين لم يعد بإمكانها إخفاء خطيئتها، اجتمع أعمام إخوتي –إخوة الزّوج السّابق–فقرّروا طرد والدتي، والاحتفاظ بابنيها طمعا في الميراث. وعندما أرادوا إرغامها على المغادرة، تقدمت بشكوى إلى العدالة، فتنقّل

1– كان القاضي الوحيد للمسلمين بمنطقة القبائل، منذ سنة 1874 م، هو قاضي الصلح الفرنسي، الذي كان يأخذ العادات والشريعة الإسلامية بعين الاعتبار، ويسعى لحلّ النزاعات المتعلقة بقانون الأحوال الشخصية، كما هو الحال هنا. كما كان القاضي يسعى لإيجاد حلول للمشاكل المتعلقة بالعدالة والإنسانية، والتي تخالف العادات عموما، وهي على سبيل المثال الاعتراف بحرية التصرف للمرأة غير العذراء، وترك حضانة الأطفال للأم، وتعديل الوصاية لتفادي تشرد الأطفال. (انظر جون بول شارناي، الحياة الإسلامية في الجزائر حسب قانون النصف الأول من القرن العشرين، باريس، م.ج.ف، سنة 1965م).

القضاة يتنقلون إلى القرية. وقامت المحكمة بتعيين وصيّ، ووصيّ بديل للولدين، وتقسيم الممتلكات، وأقرّت عدم المساس بالأرملة واليتامى من أيّ شخص كان.

وأنجبتني والدتي ذات ليلة[1]، ولم يكن بجوارها أيّ شخص لمساعدتها، ولكن طفليها الصغيرين فقط. وتصرّفت لوحدها، إذ قطعت الحبل السّري بأسنانها. وأقبلت عجوز، في اليوم الموالي، وهي تحمل معها القليل من الغذاء.

وجاء اليوم التاسع من ولادتي، وكان الطقس مثلجا، فحضنتني والدتي إلى صدرها، وأمسكت بطفليها، كلّ من يدّه، وذهبت لإيداع شكوى لدى المدعي العام ضدّ والدي. وكانت كلّ ما تريده منه هو الاعتراف بي ومنحي لقبه، ولكنّه رفض الأمر رفضا قاطعا لأنّه كان قد خطب فتاة من القرية، وخاف من عائلتها ذات النفوذ القويّ، والتي كانت تهدّده بالقتل في حالة ما إذا تخلى عن ابنتهم. واستمرت المحاكمة ثلاث سنوات، إذ كانت والدتي تأتي، صيفا وشتاء، بكلّ حزم، للمرافعة ومضايقة القضاة.

وكانت إفادة الشّهود لصالحها، بحيث اعترفوا أنّ المعني كان والدي الحقيقي، لأنّني كنت صورة طبق الأصل منه. وحكم عليه، في الأخير، بدفع ثلاثة مائة فرنك نتيجة الضرر الذي ألحقه بنا. ومع أن والدتي رفضت الحكم إلا أن القانون، آنذاك، منع التحقيق في شرعية الأبوة، إذ استحال إرغامه على الاعتراف بي. أما أنا، فطُبعت على جبهتي وصمة العار. ومن شدة اليأس، ألقت بي والدتي في نافورة متجمدة، ولكنّني لم أمت.

وواصلت مهامها المعتادة دون مساعدة، ليلا ونهارا، من غسيل، وتمشيط، وغزل الصوف، وحرث حقولها، وقطف التّين، والعنب، والزّيتون، والقيام بالأعمال المنزلية، والطّبخ، والغربلة والطّحن من قمح، أو شعير، أو بلوط. كما كانت تجلب المياه والخشب.

وعندما كنت صغيرة، كانت تتركني نائمة حتى عودتها. وعندما كبرت قليلا، صارت تضع بجانبي جرّة ماء صغيرة، وصحن به كمّية قليلة من الكسكس. وحين أستيقظ، آخذ ذلك الصّحن الصّغير، وآكل حبات الكسكس، وأشرب الماء من ثابوقالت[2]. ثمّ أخلد إلى النّوم حتى عودة والدتي. وفي حالة وصولها إلى البيت متأخرة، كانت جارة طيبة توافق على الاهتمام بي، في بعض الأحيان، إلى غاية عودتها.

1- تاريخ ميلاد السّيدة عمروش بالتّقريب هو سنة 1882 م.

2- ثابوقالت هي جرّة صغيرة، وذات عنق صغير، تستعمل لشرب الماء. ووردت هذه الكلم باللهجة القبائلية. (المترجمة).

إنّ النّاس لا يرحمون، والطفل الذي يلد عن علاقة غير شرعية يصبح ضحية المجتمع، خاصة في بلاد القبائل. ولا يجد إلا التّهميش، والتّوبيخ، والمعاناة. فعندما أخرج إلى الشّارع، أحيانا، كنت أتلقّى الضّرب والدّوس على يد الكلّ. وتبقى الصورة الأولى التي تتراءى لي، هي تلك التي تعود إلى يوم من أيام الصّيف والشّمس الحارقة على طريق محفرة ومنحدرة. وألمح صبيا في العاشرة من عمره وهو يجرّ معه بهائم، ثم أرى طفلة صغيرة، بيضاء البشرة، شعرها أشقر ومجعد. وكانت تركض وهي تصرخ: "ذادا، ذادا"[1]. وبعد تلك الصورة، صمت!! وسرعان ما تراودني صورة أخرى لمنزل بابه مفتوح، تلِج منه أشعة الشّمس، وامرأة تنحني فوق جسم طفلة عار، وبه أشواك الصّبار، ودموع حارقة تنهمر من عيني الطفلة ذات الجسم المجروح عندما كانت المرأة تنزع الأشواك منه.

وعرفت فيما بعد أنّني كنت تلك الطفلة، وكنت خلف أخي وهو يسوق البقر إلى المشرب. فدفعني طفل مشاكس، في تلك الأثناء، على أشواك الصّبار. فذعرت والدتي، واحتارت فيما تفعل حيالي؟ وكيف لها أن تحميني من شرّ البشر؟ فلم يعد بإمكانها إبقائي محتجزة، إذ كانت تخاف أن يقتلني أحد عندما أغادر البيت، وتصبح هي المذنبة في نظر العدالة.

وبلغ إلى مسامعها وجود راهبات في قرية واضياس (Ouadhias) يستقبلن الفتيات الصغيرات، ويعتنين بهنّ. ففكرتْ بأنها ستطمئن لمصيري عند الرّاهبات حيث لا يستطيع أحد إيذائي. ومع ذلك، فكّرتْ لوقت طويل. فقد كنت ابنتها، وكانت تُحبّني كثيرا، ورفضت التّخلي عنّي لصالح زوجة القاضي لتتباني. ولكنّ حادثة الصّبار أثارت خوفها من تعرضي لسوء المعاملة، فقرّرت وضعي لدى الراهبات.

فحملتني والدتي على ظهرها ذات يوم أربعاء –وهو يوم السّوق الأسبوعي– واصطحبتني معها إلى واضياس (Ouadhias). ولا أتذكر سوى القليل من تلك الفترة، أو بالأحرى مجرد صور. وأسترجع أولا صورة امرأة كبيرة ترتدي ثوبا أبيض مطرّزا بلؤلؤ أسود، وتحمل مسبحة في يدّ، وحبلا معقودا كأنه سوط، في يدّ أخرى. وعرفت، فيما بعد، أنّ تلك المرأة كانت مكلّفة بالاعتناء بالفتيات الصغيرات. وكانت بصحبتي فتيات أخريات ولكن أكبر سنا منّي، من بينهن ثسعديث آيت أوشن (Tassaâdit Aït Ouchen) (فيليسيتي) (Félicité) التي سأتحدّث عنها لاحقا.

وكان عليّ البقاء سنة كاملة في ذلك الدّير، حسب ما روته لي والدتي، أي من سنة 1885م إلى سنة 1886م. وكانت تأتي لزيارتي كلّ يوم أربعاء، وتجلب معها ما لذّ وطاب من بيض، وكعك، وفطائر، وتين أبيض ومُحلّى. وكانت تُقسّم بيني وبين الفتيات كلّ ما تجلبه لي حتى لا يعاملني الآخرون باحتقار.

1– وردت هذه العبارة باللهجة القبائلية وتعني حرفيا: أخي الكبير، أخي الكبير. (المترجمة).

ومرّت أسابيع ولم تأت والدتي لرؤيتي! وبعد طول انتظار، قدِمت ولكنّها بدت شاحبة الوجه ونحيلة. وأخبرتني أنّ أخي لعمارة تشاجر مع أحد أقرانه، وتدخّلت لتوقف الشّجار، فألقى والد الطفل بحجر، وأصابها في جبينها. وبات ضروريا نقلها إلى المنزل لأنه أغمي عليها. وبعد مرور أيّام قضتها بين الحياة والموت، استردّت عافيتها. وأمسكت حينئذ بيدي، ووضعتها على رأسها حيث توجد فتحة الجرح.

ولا أتذكّر من تلك الفترة إلاّ مرحلة "أفي ماري ستيلا" (Ave Marie Stella)، وتراودني صورة الكنيسة المضاءة، والكاهن الذي يضمن القربان المقدس (وتساءلت ماذا كان يعني ذلك المشهد بعد مرور وقت طويل من رحيلي من واضياس(Ouadhias)). أما الصورة الفظيعة التي رسخت في ذهني، هي صورة فتاة تقف بجانب حائط الرواق، وطفلة صغيرة تبكي، وهي مُلطّخة بالوحل، وترتدي فستانا مصنوعا من القش، وشُدّ إلى عنقها وعاء مملوء بالفضلات.

فاقترب منها الكاهن، وكانت الرّاهبة التي ترافقه تخبره بأن الفتاة مشاكسة، وألقت كشتبانات رفيقاتها في البالوعة، فأمرتها بالدخول للبحث عنها، ممّا يفسّر تلطّخ جسمها بالفضلات التي امتلأ بها الوعاء. وجُلّدت الفتاة حتى النّخاع، إضافة إلى تلك العقوبة. وعندما حضرت والدتي يوم الأربعاء الموالي لزيارتي، لاحظت آثار الكدمات على جسمي، فقامت بتمرير يدها عليها، ونادت الرّاهبة لتريها آثار الضرب، ثمّ قالت لها: "أهكذا أمّنتكم عليها؟ أعيدوا لي ابنتي." فقامت الرّاهبة بتعريتي، وأخذت والدتي الوِشاح الذي كانت تلفّ به رأسها، ووضعته على كتفي، وقامت بتثبيته بالشّوكة عِوض المشبك. وشقّت حزامها الصوفي الكبير، ولفّته على جبيني، ثم أمسكتني من يدي، وحملتني على ظهرها. وهكذا ودّعت راهبات واضياس (Ouadhias).

وقد تقدّم رجل شاب وشجاع من القرية –من غير قبيلتنا– لخطبة والدتي فيما كنت بواضياس (Ouadhias). ووعدها بأنه سيدّعمها وأبناءها. فقبِلت والدتي لأن إخوتي كانا عاجزين عن حمايتها أو حتى حماية أنفسهما لصغر سنّهما. وقصد ذلك الرّجل عائلة والدتي ليمنحهم المهر، ولكنّ خالي قاسي قابله بالرفض. فتزوّجت والدتي بذلك الرّجل، ولكنّها لم تلتحق بعائلته لأنه لم يكن مرغوبا فيها هناك.[1]

وعاود أعمام إخوتي، في تلك الأثناء، مضايقة والدتي، مجدّدا، وأرادوا أخذ ولديها وأملاكها. واستدعى الأمر تحويل القضية إلى العدالة. ولكنّ الكلمة الأخيرة كانت لوالدتي التي قرّرت الاحتفاظ بمنزلها وبأبنائها،

1– تلتحق الزوجة بعائلة زوجها في إطار الزواج العادي. ونادرا ما كان زوجان شابان ينفردان بمسكن خاص بهما.

وبالرّجل الذي التزم بالزواج منها وحمايتها. وبقي على وعده إلى أن توفي أخوه الأكبر، وكان عليه تحمّل كلّ مسؤولياته تجاه والده العجوز، وأمّه، وأرملة أخيه[1].

وقد أنجبت والدتي، من ذلك الرّجل، بنتا ذات عينين زرقاوين ورثتهما عنها. وكانت والدتي امرأة شجاعة، بحيث ألفت أن تقول:

"ثيشرثيو خير تميرا قارقازن"[2]. إنّها الحقيقة، فلم أر في حياتي والدتي تبكي سوى مرتين، المرة الأولى يوم رُمي بي على شوك الصّبار، والمرة الثانية عندما بلغها خبر وفاة والدتها. وكان الأمر الذي يؤلمها أيّما ألم هو انفصالها عن عائلتها إلى الأبد. وكان في منتصف الطريق الفاصل بين تاوريرت موسى–أو–عمار (Taourirt-Moussa-Ou-Amer) وتيزي هيبل (Tizi-Hibel) نهرٌ صغير تقصده النّساء لغسل الملابس، قرب قرية تاغرارا (Tagrara) وكانت والدتي تقصده كل يوم أربعاء، وهو يوم التّسوق، لتلتقي بجدّتي.

وكانت كلّ واحدة تجلب للأخرى أحسن ما لديها. وفي صبيحة أحد الأيام، غابت جدتي عن الموعد، فجاءت إحدى الجارات، وأخبرت والدتي بأن والدتها قد توفيت في اللّيلة السابقة. فقضت والدتي النّهار كلّه في التّوسط لدى خالي قاسي، وظلّت تتوسّل إليه حتى يسمح لها بإلقاء نظرة أخيرة على والدتها، ولكنّه كان عنيدا، فعادت إلى المنزل خائبة.

وحدث أن كنت بمنزلنا بمناسبة عيد الأضحى الذي وافق فصل الصّيف. وكنّا أنا وأختي الصغرى شاهدتين على تلك الحادثة. وأصبح ذلك الأمر ذكرى رسخت في أذهاننا دون أن نفهم شيئا. وعندما حلّ فصل الخريف، استدعى القايد –وهو مسؤول القرية– والدتي، وقال لها:

"ابنتك فاضمة [3] تضايقك. خُذيها إلى فورناسيونال [4] (Fort-National) حيث تمّ فتح مدرسة خاصة للبنات. ستكون بخير، وسيعتني بها المسؤولون، ولن يكون ما يستدعي خوفك من إخوة زوجك السّابق". ففكّرت

1– في حالة عجز الوالد حركيا، أو وفاته، أو بلوغه سن الشيخوخة، فإن الابن البكر هو من يتحمل مسؤولية العائلة. وإذا قدّر وتوفي الابن البكر، يتولى الأخ الأصغر منه زمام الأمور، ويدفعه الواجب إلى الزّواج من أرملة أخيه.

2– وردت هذه الجملة باللهجة القبائلية، وتعني حرفيا: "وشم ذقني أفضل من لحى الرّجال". وهي كناية عن شجاعة امرأة مثلها مثل الرّجال.

3– تجدر الإشارة إلى أنّ اسم "فاضمة" مستعمل في بلاد القبائل بامتياز، دون غيره من مناطق الجزائر. ويجب تمييزه عن اسم "فاطمة" المستعمل أيضا في بلاد القبائل على غرار مناطق الجزائر الأخرى. (المترجمة).

4– فورناسيونال هي منطقة الأربعاء ناث إيراثن التي تقع بولاية تيزي وزو، والتي كانت تُسمى إبّان الاستعمار الفرنسي في الجزائر بهذا الاسم. (المترجمة).

والدتي لوقت طويل بسبب تجربة الرّاهبات التي جعلتها مرتابة. ولكنها خضعت، في نهاية المطاف، لقرار الانفصال عني لأنّ زوجها الشّاب وسكان القرية الذين اعتبروني دوما ثمرة الخطأ، كانوا ينظرون إليها نظرة احتقار. وحدث الانفصال خلال شهر تشرين الأول أو شهر تشرين الثّاني سنة 1886م. فحملتني مجدّدا على ظهرها، وغدونا في مشوارنا. ولا أتذكر من تلك الرّحلة سوى أنّنا نزلنا عند ضفة النّهر، وأكلنا القطلب. ولا أزال أحتفظ بصورة الفواكه الحمراء. وهنا تنتهي مرحلة طفولتي. وكنت أزور قريتي بين الحين والآخر، ولكن لم يعد الآخرون يسيئون معاملتي.